

الأمومة

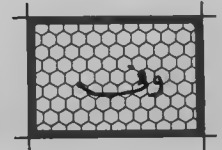
في حياة النبي ووصاياہ

ونظرة على دورها في البناء والتوجيه

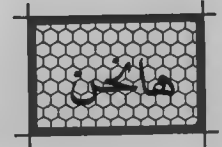
نودع القرآن لنسير - بعد - في ظلاله
المديد .. متلفتين في مباح المجتمع الإسلامي
العريض في محاولة الوقوف على مكانة « الأم » في مثل هذا
المجتمع . . لا نستطيع إلا أن نقف لحظات في حشوع واطراق ،
أمام الأمومة الشاهقة العظيمة التي أنجبت « محمداً » والتي استطاعت
رغم انعتاقها الوامض من رحلة الزمن ، أن تغرس فيه كل حوافز
التصعيد والسموق . . وأن نهيه في لحظات زمنية خاطفة ، كل
ما يمكن أن نهيه الأمومة الحانية لولدها من عطف . . ومن حب . .
ومن روعة حنان .

ولسنا ندري بعد - ماذا كان يمكن أن يكون . . لو أن
محمداً لم يذق في حياته - ولو لفترة زمنية مضغوطة - الحنان
في صدر أمه الدافئ ؟ أم أن السماء كانت معه على موعد ،
حين حرمت هذا الصدر النابض الحنون ، حتى تذكي في أعماقه

المضيئة قبس الحب لهذه الإنسانية « الأم » فيخلدها في كل طور
من أطوار الزمن . . وفي كل جيل من أجيال التاريخ ؟ إن المتصفح
لتاريخ النبوة . . وما كان عليه الرسول في هذه المجالات لا يستطيع
أمام هذا الطوفان الزاخر من اهتماماته الرائعة بالأمومة إلا أن
يرجع بأصرة النسب بينهما إلى وشائج أقوى من وشائج اللحم
والدم . . لأن محمداً لم يرتفع بالحديث عن كائن بشري كما
ارتفع به عن الأمومة . . وكأنما كان يمنح فيه من معين لا ينضب ،
أو يقتبس فيه من جذوة لا تخبو مع الأيام !



ظلال من رحلة تلمسنا فيها جذور هذه العاطفة ، وأغوار هذا الوجدان ، لا نستطيع
أن نفصل عن حتمية العودة إلى طفولة محمد ، لنرى كيف كانت أمه آمنة بنت وهب
إلى جواره ؟ هل كانت نبع عطف ، وغدير إيمان ، فغمرت وليدها البازغ في بهاء ذلك العطف ، وصفاء هذا
الإيمان ، حتى استحال كيانه كله ، إلى نبضات خافقة بحب الأمومة ، وخلجات هامسة بما لها على الإنسانية
من فضل تنضاء حياله الأفضال ؟ أم ماذا ؟ . .



مع مطالع بزوغ هذا الفجر . . مع محمد جنيئاً في بطن أمه . . مع إحساساتها الطافرة نحو
هذا الجنين الذي ما زال يغالب التيار في ظلمة المجهول . مع حديثها الوامض عن هذه
المرحلة من مراحل حملها بالنبي . . قالت حليلة السعدية ذات يوم : والله ما للشيطان عليه يا حليلة من سبيل
وإن لابني هذا لشأناً . . أفلا أخبرك خبره . . ؟

فهتفت حليلة : أجل . . قولي يا آمنة . .

فانهمرت أم النبي تقول : والله ما رأيت من حمل قط كان أخف من حملة ولا أيسر منه . .

إذا فالصداقة معقودة بين محمد وأمّه حتى قبل أن يعانق محمد أضواء الوجود . .

وحين ولدته يا حليلة وقع وإنه لواضع يديه على الأرض ، رافع رأسه إلى السماء . . رأيت ؟

إن أم النبي كانت ترى في الطفل صورة الرسول . . إن إحساسها العارم بتفوق الوليد الجديد قد أثرى
إحساسها النابض بالحب . . وأذكى مشاعرها الأمومية البيضاء . . إلا أننا نجرم في جانب الحقيقة حينما نحصر

الحديث عن أم النبي في هذا الإطار . . إطار المشاعر الحلوة ، والعواطف الدافئة ، والأحاسيس المنهمرة
الثرية . . فما أكثر ما تنساب كل هذه الطاقات الهائلة بين الطفل الصاعد وأمه الرائمة . .

فلنشب بالحديث إلى عالم آخر فتساءل : هل كان لأم النبي دور في تربيته وصقله ، وإعداده لما يتظره
من دور على مسرح الوجود ؟ . .



الذي أعرفه

أن آمنة أم النبي كانت مثلاً رائعاً للأمومة الحية النابضة . . تعهدت الطفل النبي منذ
غضارته ، فحدثته عن أبيه وعن روعة حياته . . كيف كان أملاً مرجى . . وأسطورة
فذة للرجولة . والمجد ، والجمال . . حدثته عن قصة الفداء المذهلة ، وكيف أن عيون قريش كلها كانت
تقطر دماً . . وهي تنظر من بعيد إلى شبح الموت القادم في ضوء النهار ليطوي تحت جناحيه الداكنين شباب
عبد الله . . وكيف أن هذه العيون الدامعة احتشدت من بعد بالفرحة ، وتألفت بأغاريد الخلاص . .

وما زالت به هكذا حتى السادسة ، نصب في أذنيه ملاحم القوة ، وأناشيد البطولة وذكريات الفداء . .
حتى استوت للطفل الواعد شخصية تنبئ عن غد رجولي باسل . . وفريد . . وحين شارب هذه السن . ورأت
فيه بوادر النضوج والاكتمال . . أصرت - لأن الدور هكذا يحتم عليها - أن تزور به قبر أبيه . . وتألفت
دمعات الفرح على وجنتي الصبي أنه سيرى القبر الذي يرقد فيه الحنان الأعظم . . سيرى قبر أبيه الذي لم
يره . . والذي طالما حدثته عن أيامه ولياليه أمه الساهرة على كلاته . . سيرى أخواله هناك ، في يثرب ستتوشج
أواصر جديدة بينه وبين طفولات كثيرة . . فليذهب إذأ . . وذهبا . .

وأخذت الأم ولبدها لثريه البيت الذي مرض فيه أبوه . . والقبر الذي دفن فيه . وهي بين القبنة والقبنة
تختلس نظرات نافذة إلى طفلها الساهم ، لعلها تريد أن تقرأ ما يجيش في داخله من خيالات . . وما تركته
تلك الرحلة في أعماقه من انطباعات كل ذلك والفتى ساهم . . واجم . . كأنه يعايش بنظراته الذهلي من ثوى
خلف هذا الركام . . أو كأنه يطالع في صمت روعة المعجزة التي فجرت من هذا الحفير الدارس المتواضع
تاريخاً سبحول التاريخ . .



وعادت

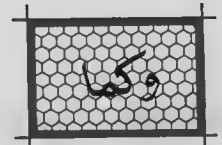
بمحمد أمه . . وانطلقت القافلة الصغيرة الكبيرة تضرب في بطون الأودية وشعاب الجبال . .
ولكن الأم ماتزال صامته . . كأنها خرساء . . إنها تعانق الأفق البعيد بنظرة وهي . . بينما يذبل الربيع في
وجهها الغارب شعاعاً من وراء شعاع !! وحين تخاذلت ذراعاها عن صدر الفتى المبهور . . تلفت إليها فيما
يشبه الروع . . فضمته إليها في حنان راعش راعب مقررور . ثم انطلقت في خفوت واهن تتمتم ، « كل حي

ميت .. وكل جديد بال .. وكل كبير يفنى .. وأنا ميتة .. وذكرى باقى .. لقد تركت خيراً .. وولدت طهوراً ،
ثم طواها بعد ذلك صمت أبدي رهيب ! ..

وحفرت هذه اللحظات الحزينة المتأللة في أعماق النبي صورة لا تبهت ، وانطبعاً شاخصاً لا يريم ..
فعاش حياته كلها في إطار من هذه اللحظات الغائمة ، ترتجف أعماقه كلما خابله الذكرى ، أو تخالجه
ذهول الموقف المحموم ..^(١)

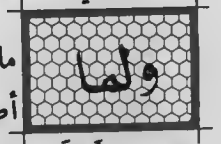
وما زال محمد يردد في كلماته صدى ما عاش في ضميره من عذابات .. فحين يرى دار بني عدى بن
النجار بعد الهجرة ينساب في ألم يقول: « هَهُنَا نَزَلْتُ فِي أُمِّي .. وَفِي هَذِهِ الدَّارِ قَبْرُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ .. »
وحين يمر بالأبواء في عمرة الحديبية يقول: « إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِمُحَمَّدٍ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ » فأتاه فأصلحه ،
وبكى عنده ، وبكى المسلمون لبكائه ، فقيل له في ذلك فقال: « أَذَرَكْتَنِي رَحْمَتَهَا فَبَكَيْتُ .. » .

ويروي عبدالله بن مسعود: « خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - يوماً وخرجنا معه ، حتى انتهينا إلى
المقابر ، فأمرنا فجلسنا ، ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها ، فجلس إليه فواجه طويلاً ، ثم ارتفع
صوته ينتحب باكياً ! فبكينا لبكاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم ان رسول الله أقبل إلينا فتلقاه عمر
ابن الخطاب - رضي الله عنه - فقال : ما الذي أبكاك يا رسول الله فقد أبكنا وأفزعنا ؟ فأخذ بيد عمر ، ثم
أوماً إلينا فأتيناه ، فقال : أَفَزَعَكُمْ بُكَائِي ؟ قلنا : نعم يا رسول الله .. فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً .. ثم قال
إِنَّ الْقَبْرَ الَّذِي رَأَيْتُمُونِي أَنَا جِئْتُ بِهِ قَبْرَ أُمِّي آمِنَةً بِنْتِ وَهْبٍ .. وَإِنِّي اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَتِهَا فَأَذِنَ
لي .. ! »



كان محمد يقدر الأمانة في أمه .. فكذلك كان في موقفه من كل الأزمات لقد
انعكس حبه الغامر لأمه الراحلة .. على كل أم في هذا الوجود .. فدأب على توعية
الملايين بما للأمانة من حرمة ، وما لمكانتها من جلال .. يتألق ذلك في تكريمه الموصول لموضعته « لويبة »
مولاة أبي هب .. فكان يصلها وهو بمكة .. فلما هاجر إلى المدينة كان يبعث إليها بصلة وكسوة .. إلى أن
مات ، فلما دخل مكة ظافراً لم تنسه نشوة النصر أن يسأل ما فعل ابنها مسروح ؟

وكذلك كان تكريمه لحاضنته « أم أيمن » التي رافقته وأمه إلى يثرب .. وكان إذا رآها قال : « هِيَ أُمِّي .. »
بعده أمي .. » .



ماتت فاطمة .. أم علي بن أبي طالب .. ألبسها قميصه واضطجع معها في قبرها فقال له
أصحابه : ما رأيناك صنعت بأحد ما صنعت بها ؟ فقال : « إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ بَعْدَ أَبِي
طَالِبٍ أَبَرَّ بِي مِنْهَا .. إِنِّي إِنَّمَا أَلْبَسْتُهَا قَمِيصِي لِتَكُنِّي حُلُلَ الْجَنَّةِ .. وَاضْطَجَعْتُ مَعَهَا
فِي قَبْرِهَا لِيَهْوَنَ عَلَيْهَا .. » .

(١) راجع كتاب « أم النبي » للذكندرة بنت الشاطي وتاريخ مكة للآزرقى والسيرة الحلبية وصحيح مسلم .

وَحْدَانِ

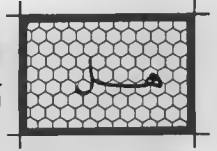
وحيث

5030

وحيث

وہیکل

وهكذا يسلمنا النبي مفاتيح البر بهذه الأمومة البرة . . حتى لا نستحيل في حياتنا الصاخبة إلى قطع ذاهل منكود . . لا تربطه إلى أعماق حياته الوائبة وشيجة من عاطفة ولا سبب من أسباب البنوة البيضاء . . ولكن . . إذا كانت هذه مضامين الهفافات العالية الجريئة التي أطلقها محمد رسول الله في طريقه إلى دعم مكانة الأمومة ، وتكريم دورها الخطير . . فما هي رسالة الأمومة في الحياة ؟



هي مجرد وعاء لحمي يستوعب بذور الخلق ليقدفها بعد أماد محدودة إلى عالم الوجود ؟
أم هي مخلوق عاجز مشلول استقر كل هذا الحنان الصيب من قلب الرسول فجاش حياً نابضاً في كلماته ؟

أم تراها مصدر إشعاع روحي خطير إلى جوار كونها مصدر إشعاع وجودي أصيل ؟

الذي أعرفه . . أن الأمومة لو كانت مجرد وعاء لحمي ، أو مجرد قوة مشلولة تستأهل العطف . . لكانت في موازين الحياة أخف وزناً مما هي الآن . . فما أكثر ما نشاهد من حشرات . . أو دواب . . أهلتها طبيعتها المؤنثة لكي تصير أمّاً تهب الوجود خلقاً جديداً .

إن الأمومة قد تبوأَت هذه القمة لأن لها دوراً . . إنها صاحبة دور من أخطر أدوار البناء والتوجيه في حياة المجتمع . . فعلى قدر ما تبذل . . وتبني . . وتسدد . . نجعل فيها مصدر العطاء وسبب الوجود . . وبمقدار ما تتخلّى عن هذا الدور أو تنتكس . . ننغص إليها الرأس احتقاراً ونشجع عنها بالأعين ازوراراً .

ألسنت معي في أن أمّاً كأسماء بنت أبي بكر . . تعدل ملايين الأمهات ممن يقبعن داخل جدران بيوتهن . . يغزلن في قطن خائر رخو . . أو يجدفن في أمواج متلاطمة من دماء الأعراض والحرمان ؟ إن هذه أم . . وتلك أم . . بحتمية التقائهما في إطار الإنجاب . . ولكن ما أوسع البون بينهما في مجالات الموازنة أو المقارنة ، أو المضاهاة . . إن أسماء بنت أبي بكر . . أم عرفت حقيقة دورها في الحياة . . فدفعت بابنها الباسل عبدالله بن الزبير إلى خشبة الصلب ، غير عابثة بشكل يقترب . . أو خطب يدمدم ، أو إعسار أسى ينوح ! ! وحين تلمح بوادر التردد ترحف على جبين عبدالله من خلال كلماته : يا أمي . . إني أخاف أن يمثلوا بي بعد القتل ! تنتفض في أمومة فدائية بطلّة . . تعصر جراحها بيديها وهي تقول . امض على بركة الله يا بني . . فإن الشاة لا يضرها بعد الذبح أن تسليخ ، فتحضاً بكلماتها نار الإقدام في أعماق الفارس المصلوب فيمضي إلى القتل . . كأنه ماض إلى موعد بسام .

وحين تطول بابنها ضراوة الصلب . . لا تقعي . . ولا تهالك . . وإنما تمضي على طريقها الباسل بخطوات فيها تحد . . وفيها كبرياء . . ولا تزيد حين تنظر إليه على أن تغلف كلماتها بالسخرية ممن صلبوه فتقول : ها . . قولوا للحجاج . . أما أن لهذا الفارس أن يترجل ؟ !

ليبك من كل أعماقنا يا أسماء . . إننا أبناءك وإن عز البديل عن عبدالله . . إننا أبناء كلماتك الشجاعة الفذة . . أبناء أمومتك الفدائية البطلّة . . التي تتحرق إلى أمثالها شوقاً أعماق الوجود ! !

ومن هنا . . ومن نقطة انطلاقنا هذه . . نستطيع أن نلمح في إضاءة كاشفة نظرة الإسلام إلى الأمومة . . إنه يكرم في الأمومة قلبها النابض بالحب . . وعقلها الخافق بالمعرفة . . وجسدها المتأني على نداءات الحضيض . . إنه يكرم فيها الأم . . والمدرسة . . والكيان المستعلي في كبرياء ذاتي نبيل .

■ وحين تتحقق للأمومة هذه الأقانيم . . أعني قلبها النابض . . وعقلها الخافق . . وجسدها الكبريائي . .

فإنها لا محالة مؤدية دورها على أكمل الوجوه . . وأبدع الأنساق .

إنها ستنتشر من حولها ظلال الحب الوارفة فتنشأ الطفولة في حصنها أليفة متعادلة لا تلوي بها عقد النقص . . ولا يعصف بكيانها شعور لاهب بالحرمان .

إنها ستضيء عقول أبنائها بمشاعل النور والمعرفة . فلا يتخبطون في أغوار الجهالة ولا يزحفون على بطونهم في سفوح الفراغ .

إنها ستلقنهم - في أسلوب عملي - قضية نظافة الجسد . . فلا يدمرونه في وهدة القاع ، ولا يمزقونه على مذبح اشتهاه جنسي رخيص .

وهل تستطيع الأمومة أن تؤدي هذا الدور . . أو تنهض بهذه الأعباء . . ما لم يكن لها من دينها . . وبيئتها . . ومجتمعها . . وأنماط السلوك في عالمها . . حافز . . وموجه . . ومنير ؟



أعرفه . . أن الإسلام كدين . . وكطراز حياة . . عُنِيَّ في تعاطف جم بهذه الأبعاد المضيئة في حياة الأمومة . . إنه علمها كيف تحب أبناءها . . براعيم الحياة . . في قصد معتدل . . وفي غير إسراف . . إن الحب المسرف قاتل من غير شك . . تماماً كالدواء المسرف ، إنه يقتل الأحياء . . ومن هنا فقد حرص الإسلام على تعميق هذه الفكرة . . وإثراء هذا الاتجاه في وجدان الأمهات . . حتى لا ينقلب الحب إلى لون حاطم من ألوان التدليل الويل .

لقد أباح أن تضرب الأم طفلها إذا انحرف . . واستعصى انحرافه على التوجيه الهادي . . واللوم الخفيف .

فقسا ليزدجروا . . ومن بك حازما فليقس أحياناً على من يرحم

ثم ماذا تستطيع الأمومة الجاهلة أن تفعله ؟ هل تستطيع أن تربي جيلاً من الأجيال ظامئاً إلى المعرفة . . متشوقاً إلى آفاق الحرية والتطلع . . والنور . . ؟ إن فاقد الشيء لا يستطيع أن يهبه . . ومن هنا فقد أطلق الإسلام للمرأة جناحيها تحلق بهما في فضاء المعرفة اللانهائي . . حتى تؤهلها طبيعتها المتعلمة الواعية لتؤدي دورها كام . . وكأم مثقفة . . ناضجة . . مكتملة النضوج تزرع في أعماق أطفالها روح التزوع الواثب الفاهم العملاق .

ثم . . من هي الأم التي فقدت جسدها كأثني . . وعرضته سلعة رخيصة في سوق النخاسات ؟ هل تستطيع مثل هذه الأم أن تنبت جيلاً يؤمن بعزته . . وبوطنيته . . وبأنه منحدر من أصلاب مجتمع نظيف ؟ أبداً . .

فألتي فقدت نفسها لا تستطيع أن تعرّ على أنفس الغير . . . وألتي تهون في مخادع الليل المريضة الصفراء . . . لا يمكن أن تضىء كفها شعله ولا أن تدفىء أنفاسها رعدة . . . ولا أن ترعرع أحضانها طفلاً يريد أن يعانق على الطهر أحضان الحياة !

■ ومن هنا كان الإسلام ثورة عاتية . . . وعارمة . . . على كل أنماط الأممات الرخيصة التي تبيع الهوى . . . وتتجر في بضاعة الأعراض . . . إنه يؤمن بالنظافة الجسدية لإيمانه بالنظافة الروحية . . . حتى تستحيل الأم - في مفهوم أطفالها إلى مثل أعلى وإلى نموذج كريم . . . فيشبون على خلق الطهر . . . وتستقيم خطواتهم على طريق النبالة .

■ وهكذا . . . نجد أن الأمومة هي المدرسة الأولى التي تتلقف أحضانها البراعم الحضراء . . . فتشكلها على نحو أو آخر . . . ولذلك . . . فلإن عناية الإسلام بها من هذه الزاوية . . . هي في الواقع عناية بحقيقة الدور الذي تؤديه . . . مما يؤكد لنا أن الأمومة رسالة قبل أن تكون وعاء لحماً . . . ودور قبل أن تكون كياناً مستوجب الرحمة . . . وحركة بناءة قبل أن تكون شيئاً يفيض بمجرد الحنان .

■ ولكنني في غمار الحديث عن الأمومة في الإسلام كدت أنسى أن البحث ليس محصوراً في هذا الصدد . . . وليس عائشاً فحسب في هذا الإطار .

■ إن الحديث عن الطفولة بشكل جانبا من جوانب هذا البحث . . . فلأترك الأمومة الآن - على كره مني - لأتحدث عن الطفولة في الإسلام .

